سهل بن هرون (١)

« منبته ونسبه » : — ولد سهل بن هرون (٢) في مدينة مَيسان بين واسط والبصرة وفي رواية في دَسْتُ مَيسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الاول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه الا انه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته ابو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي اوخوزي المولد ، عراقي المنشأ . تحول الى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة اذ ذاك مدينة العلم في الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، او كما قيل فيها « قبة الاسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل العلم الانساني اصوله وفروعه ، ومن القائمين على تحبيته مصانعه وحوله ، فغذى روحه بلسان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها ، فتخرج بعلمائها ، ولا شك انهم كانوا طبقة عالية جداً ، في كل مطلب من مطالب الآداب .

وكانت البصرة بل المملكة الاسلامية أخذت في تلك الحقبة ، تمتزج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب في المجتمع الاسلامي ، وعلماء الامة يتعاورهم الجزر والمد على شاطىء بحر الحكمة القديمة ، فبأن

---

(١) محاضرة السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ألقاها في ردهة المجمع يوم ٣ كانون الاول سنة ١٩٢٦ . (٢) لم يترجم لسهل بن هارون القفطي في اخبار الحكماء ، ولا ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ولا البيهقي في حكماء الاسلام ، ولا السمعاني في الانساب ، ولا ابن الانباري في طبقات الادباء . وترجم له تراجم موجزة كل من الصفدي في الوافي بالوفيات والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون وابن بدرون ، في شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبي في المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر الهولاندي من علماء المشرقيات في المعلمة الاسلامية ، واقتصر على ماقاله المترجمون فيه وفاته انه كان من رجال الرشيد وقال انه لم يجتمع بالجاحظ مع ان الجاحظ يروي عنه كثيراً في كتبه المطبوعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مدينة البصرة مع خليجها ، يمد ماؤها و يجزر على الدوام ، وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الافكار حتى أخرجت عقولهم درراً غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلي الثمينة النادرة . وكانت النفوس حريصة على الدين الذي دوّن وحرر ، راغبة كل الرغبة في الاخذ مما لا عهد لها به من علوم الامم السالفة . وفي هذا المحيط انبعث عقل سهل بن هرون لاول امره ، في ارض صالحة لانماء العقل واطلاقه من قيوده ، ولم يُعرف اذا كان سهل رحل الى الروم وفارس والشام ومصر ، والغالب انه لم تتعد انتقالاته مدينة الرقة قصبة ديار مضر ، والرصافة رصافة هشام في اول تخوم الشام ، واكتفى بالبصرة وبغداد . وجميع هذه المدن الاربع الرُّصافة والرَّقة وبغداد والبصرة هي من بناء العرب . وكانت بغداد أجمل مدن الارض في ذاك العصر ، وفيها كل شيء جديد سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها ، او في عقول اهلها ونبوغ علمائها ، يُحمل اليها من الآفاق بدائع ماصنع البشر ونتجت عقولهم . والدول سوق يحمل اليها ما يروج فيها .

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل ، ولا مظهره ومذهبه ، ولا أصل أم سهل وتربيتها ، ولا معلميه في بلده ، ولا أساتيذه في البصرة ، ولا أترابه ولداته في صباه ، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الاكبر في تربية الملكات ، وتلقين الاخلاق والعادات . يُنشأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص ، تتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها . بيد انه من المعقول ان يكون قانون الوراثة اورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها ونظامها وأدبها ، وضم اليها الثقافة العربية فجاءت منازعه خليطاً نافعاً ، ومداركه متينة رصينة .

أضف الى هذا ان مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك ، على ما كانت البصرة سيدة البلاد بصفائها ومنائها ، وقوتها وعزتها ، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل ابن هرون أجمل عصور التاريخ ، والمُلك موحّد من المغرب في شمالي افريقية الى حدود الشرق ، وليس في الارض حكومة اسلامية غير الاندلس بيد بني مروان : لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج ، يشتمل الناس على السلامة ، ويغتبطون بما أوتوا في سلطان بني هاشم ، وكلما نجم ناجم من العلويين او غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه لساعته ، فضعف المنازعون الى منازعة الخوالف حبل السلطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب ، والملك من ملوك آسيا واوربا اذا تيسر لقاصده او سفيره ان يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس ، يسعد ويعتز في سلطانه ، وعدّ ذلك نعمة حازها دون أقرانه .

« مذهبه وأخلاقه » : — قيل ان سهل بن هرون كان شيعياً ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه ان انتقص احداً من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الاحياء ، وما أثر عنه انه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها اذذاك ، ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد . واتهموه بانه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلاً ، واذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فُسر به بعد قرون .

والشعوبي منسوب الى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » . ونشأ مذهب الشعوبية على الأرجح بعيد عصر الخلفاء ، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الاسلام بابطاله ، ولو كان للجنس يفضل المرء في الامة ، ما نزل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية . والدين لا يفاضل الا بالتقوى . على ان أعظم من كانوا يكيدون للعرب بالشعوبية السافلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، لا أشراف العجم وذوو الاخطار واهل الديانة ، على ما رأى ابن قتيبة . اذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية ، غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعه الا ان يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يعدّ رجلاً مذكوراً الا بالاسلام ، والأخذ عن علماء العرب ، ورقي في مظاهر الدنيا حتى وصل الى أعظم خلفاء العباسيين هرون الرشيد وعبدالله المأمون . وكان بفضل العلم احد أئمة البيان والحكمة في الامة العربية ، ودعي لحكمته وعقله بُزرجمهر الاسلام . وبُزرجمهر وزير انو شروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة .

وصفه الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً في نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة ، (الرمي) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضي له بالحكمة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قبل الخبرة ، و برقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان، و بالنبل ، قبل التكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحراني ولعله ابراهيم ابن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل بن هرون صداقة فانعته لنا كي نعرف فقال : هو كالخبير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، ان حدث لم يكذب ، وان مزح لم يغضب ، كالغيث اين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالارض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور لملتمسه ، ونافع لغلة من أحرّ اليه ، وكالهواء الذي تُقطف منه الحياة بالنسم ، وكالنار التي يعيش بها المقرور ، وكالسماء التي قد حسنت باصناف النور اه . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخلقه وخُلُقه .

واتهموا سهل بن هرون بالبخل وأوردوا له قصصاً ونوادر ، وعده الجاحظ من « متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء » قال : ما علمت ان احداً جرد في البخل كتاباً الا سهل بن هرون وابا عبد الرحمن الثوري . والبخل في الفرس غالب في الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذلك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب ، ان يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك . وماشوهد قط تفريط الا والى جانبه إفراط . وربما كان اتهامه بالبخل مبالغاً فيه تُراد به النكتة والنادرة .

حكى الجاحظ قال لقي رجل سهل بن هرون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك فقال : وما هو يا اخي . قال : درهم . قال : لقد هوّنت الدرهم وهو طائع الله في ارضه لا يعصي ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الالف ، والالف دية المسلم ، ألا ترى الى اين انتهى الدرهم الذي هوّنته . وهل بيوت الاموال الا درهم على درهم . فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هرون ، وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأتي بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم ، فأخذ كسرة ونفقد مافي الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : اين الرأس قال : رميت به قال : ولِمَ قال : لم أظنك تأكله قال : ولِمَ ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ، ولو لم أكره ما صنعت الا للطيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفأل لكرهته ، اما علمت ان الرأس رئيس ينتفاءل به وفيه الحواس الخمس ، ومنه بصيح لديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال شراب كعين الديك ، ودماغه عجب لوضع الكلية ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الاسنان منه ، وان كان بلغ من نُبلك انك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، او ما علمت انه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق ، انظر اين رميته ، فقال : والله ما أدري قال : انا والله أدري انك رميت به والله في بطنك فالله حسيبك .

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه فكتب اليه الحسن : قد مدحت ما ذمه الله ، وقبحت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسياً ايضاً ، ولكنه في الجود آية الآيات . والطبائع ارثية وللنشإ والعادة دخل كبير فيها ، ومع كل هذا فقد صح من شعر سهل قوله :

وما العيش الا ان تجود بنائل والا لقاء الاخ بالخلق العالي

ومن يقول هذا الشعر ، و يقصد هذا المعنى ، لا يكون من البخل على ما وصفوا ، ومن أفاد مالاً فادخره الى الايام السود ، كان في احتياطه على مثال ابناء البلاد الباردة الذين قد يذخرون مؤونتهم سنتين وثلاثاً اما اهل البلاد الحارة فلا يفكرون الا في اليوم الذي هم فيه على الأعم الأغلب من حالاتهم . وقال عن ولد صهير الجرجي : ان تمدح ابن هرون بالبخل ، نزغة من نزغات الشعوبية ، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية .

« طريقته في الكتابة وتآليفه » : — ان رجلاً يفضله الجاحظ و يصف براعته وحصافته ، و يحكي عنه في كتبه ، و يظهر إعجابه به اذا ذكر ، و يروي حديثه ومجالسه ، هو ولا شك المثل الاعلى في صنوف العلم والآداب ، بلغ الذروة فيما تفرد به واشتهر بمعرفته ، وكان اهل عصره مجمعين على الاقرار بفضله ، فلما يداخلهم الحسد له ، فكان منقطع القرين في فنه ، نابغة في العلم الذي يمتُّ به ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان ، وفي العلم والعقل المثل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المضروب ، كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه الى نفسه فلا يرى الاسماع تصغي اليه ، ولا الارادات تيمم نحوه ، ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع او سهل بن هرون او غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت اسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها و يسارعون الى نسخها . وطريقة سهل في كتابته طريقة امير المؤمنين علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامه فلا يشاهد فيه الناقد اثر التعمد ، بل لا يكلف بغير ارسال النفس على سجيتها فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد . وقيل ان سهلاً كاتب سلاطين والجاحظ مؤلف دواوين . وكأن كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها ، بعد ان ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يخفل بالاسجاع الا اذا جاءت عفو الخاطر ، شأن بلغاء الصدر الاول . ولا يتعمد الجزالة الا اذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قوله من نكتة تحمد له وتحمل عنه . وكأنك في انشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب اذا لم يكن علم الكاتب يملي ، والمظاهر والدساتير مستملية . ففي أسلوبه تقرأ للتعلم ، وفي غيره تقرأ الفاظاً جميلة وقوالب محكمة ، وسبك كلمه الطيب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها في نفسه من طريق الاقناع والبرهان لا من مجرى القفية والزخرف ، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات .

كان سهل يقول الشعر ، وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، في غرض خاص من أغراض المجتمع ، وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة . ولقبه مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب في شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم في البلغاء وقال انه شاعر مقل ، وعده في الشعراء الكتاب وقال انه كان ممن يعمل الامثال والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدالله ابن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة . وشعره خمسون ورقة . اما الدهشة فقي تآليفه فله ديوان رسائله ، وكتاب الثمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (اسانرس) في اتخاذ الاخوان ، كتاب اسد بن اسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتاب الى عيسى بن اباك في القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثملة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة قلده في أبوابه وأمثاله وقال المسعودي يزيد عليه اي على كليلة ودمنة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه كتاب الهزلية والمخزومي ، كتاب الوامق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام و يا للأسف على واحد منها فيما علمنا ، ومنها ما عارض به كتب الاوائل ، فجمعت الى الحكمة الفائقة البلاغة السرية الغريبة .

ولا تعجب اذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والاسمار ، فان من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه ، وصعب عليك ان تلقنه الثقافة العالية والاخلاق الفاضلة ، الا في قالب يميل اليه بجملته ، ظاهره هزل وإمحاض ، و باطنه تعليم وإرشاد ، ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب ، مما يلذ المطالع ويفيده علماً ، ويلقي عليه حكمة بالغة على نحو ما يفعل كبار القصصيين من اهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل ، لان كتابه كليلة ودمنة الذي عربه من البهلوية اشتهر اكثر من اشتهار ثعلة وعفرة ، او غير ذلك من الاوراق التي كسرها على القصص ، ولا تدل اسماء كتبه على انه كتب في موضوع أشبه بديني اللهم الا كتابه في القضاء ، اما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على انه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب .

« حياته السياسية » : — لم نهتد الى زمن انتقال سهل من البصرة الى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه ، وعن سنة ولادته ، وغاية ما ذكر في ترجمته انه كان مختصاً بالفضل بن سهل اخي الحسن بن سهل وزيري المأمون وان الفضل قدمه للمأمون ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول ان سهلاً كان من رجال الرشيد ، وانه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من ايامه مُربياً على امسه ، مقصّراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأوضحه ، اذا رام ان يقول لا يعجزه القول . فقال سهل : يا امير المؤمنين ما ظننت ان احداً تقدمني الى هذا المعنى . قال : بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك امس خير بني أُوَيّ وانت اليوم خيرٌ منك امس
وانت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على ان سهلاً اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير . وان سهلاً كان معروفاً برواية الشعر والحديث ايضاً . وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال ان سجاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ولو كان كلام يتصور درراً ، ويحيله المنطق السري جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنثق من لفظهما . ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه ، قدمين عجمين ، وجاهلين أميين . ولقد عُمّرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في ايامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تتكمل الا فيهم ، ولم تكن مقصورة الا عليهم ، ولا انقادت الا لهم ، وانهم محض الانام ولباب الكرام ، وملح الايام : عشق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثير ايام من سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، الى النفخ في الصور والبعث اهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين واهل وحيه المرسلين ، لما باهت الا بهم ولا عوّلت في الفخر الا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم إلى ملء الارض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون كالنفثة (النفلة) في البحر ، والخردلة في المهمه القفر » .

وهذا الكلام على ما فيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مصانعة ، وفيه مبالغة فارسية لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه ، ومن الصعب ان يتجرد المرء عن كل أخلاقه ، ويخرج عن دمه الذي ورثه مهما عولج بالتعليم والتربية .

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال : ان الرشيد لما قتل جعفراً بعث اليه وكان معه في الرقة بحصل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد — والرقة كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مصطاف الرشيد وكان يقول الدنيا اربعة منازل دمشق والرقة والريّ وسمرقند — ولما حمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج اليه قد كلفه إكمال معانيها باقامة الوزن فيها فلبس ثياب أحزانه لانه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال : فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذعر في تجريض ربقي ، والتمابد في طربقي ، وشخوصي الى السيف المشهور ببصري فقال : إيهًا يا سهل من غمط نعمتي ، واعتدى وصيتي ، وجانب موافقتي ، أعجلته عقوبتي » قال : فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : « ليفرخ روعك ، وليسكن جأشك ، وتطيب نفسك ، وتطمئن حواسك . فان الحاجة اليك قربت منك وابقت عليك ، بما يبسط منقبضك ، و يطلق معقولك ، فاقتصر على الاشارة دون اللسان ، فانه الحاكم الفاصل ، والحسام الناصل ، وأشار الى مصرع جعفر وهو يقول :

من لم يؤدبه الجميـ ـل فني عقوبته صلاحه

قال سهل : « فوالله ماأعلمني عييت بجواب احد قط غير جواب الرشيد يومئذ ، فما عولت في شكره والثناء عليه الا على تقبيل يديه و باطن رجليه » . ثم قال لي : « اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ووهبتك ما ضمنته أبنيته وحوى مُرادقه ، فاقبض الدواوين واحص جباه وجباه جعفر ، لنأمرك بقبضه ان شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نشر عن كفن ، واخرج من حبس ، فأحصيت جباههما فوجدت عشرين الف الف دينار .

وبذلك تبينت منزلة سهل وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد ومع ما كان له من الإجلال في الصدور خاف يوم النازلة بالبرامكة وكانت البرامكة كما قال ابن خلدون من محاسن العالم ، ودولتهم من أعظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — ان تضنه القافية لصحبته لهم وامتزاجه بهم . وناهيك به يومئذ من موقف صعب ، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء ، ويضنّ بعظيم من رجاله لأسباب تافهة فأبقى على سهل بن هرون لانه من مفاخر الملة والدولة . لا جرم أن سهل بن هرون كان في سياسته من حزب الحكومة او الحزب المعتدل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعزب فطرته عن التطرف ، و يرى المصلحة في التآلف ، وبعد الخروج عن سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة .

والغالب ان عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ . ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة اربع سنين وثمانية اشهر وكسر فالتزم على ما يظهر بيته ، واعتزل الفتنة بين الامين والمأمون ، حتى اذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل ابن هرون من خاصته كما كان من خاصة ابيه الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة ان المأمون كان استقل سهل بن هرون . وقد دخل عليه يوماً الناس على مراتبهم فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من اومه أقبل سهل ابن هارون على الجمع فقال : مالكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تنصفون ؟ والله انه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرّف بالدواء من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الاول . وفي ذلك ايضاً من حسن المأتى ولطف المدخل والمخرج ، مايعرفه المبتلي بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل الى الدخول على اكثرهم الا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وان لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون . وهما ما هما في العقل والعلم والعدل . وأخرى وهو ان سهلاً بكلامه هذا ، ضرب الحاضرين في مجلس المأمون في الصميم وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فنسبهم الى السكوت في مواطن القول والى القصور في ميدان الاستحسان والاستهجان ، ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة كان حرياً ان لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء وهذا من دهائه الكسروي .

رجع المأمون عن رأيه في سهل ، وعرف انه الرجل كل الرجل في صورته وعقله ومفاكهته وغنائه وأدبه ، فقربه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده وكان سهل قد أسن بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلاً عند الخليفة والده . ولكن المأمون يحترم الكبير وهو رجل في جماع اموره . بيد انه لم يقبل باصطفائه الا بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اختباره . وعندما وقع عنده على امور تفرد بها وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء وهم عشرة اختيروا له من مئة .

« حياته العلمية » : — كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة وعُدَّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي فأنشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يده اليه من كتب العلم باللغات المختلفة .

وكانت جزيرة قبرص في ذاك العهد تشغب كثيراً على الخلافة وقد سبى عمال الرشيد اهلها مرة حتى اذا أفضت الخلافة الى المأمون مادن صاحب قبرس وارسل اليه يطلب خزائن كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه احد ابداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي في بلده واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة الا مطراناً واحداً فانه قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا افسدتها وأوقعت بين علمائها . فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون . ثم صالح هذا الخليفة العالم صاحب الروم ميخائيل الثالث على ان يدفع اليه ما عنده من كتب القدماء وأرسل بعوثاً من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة فوق ما حمل اليه من الشرق والغرب وجعل سهل بن هرون خازناً لها وسماها بيت الحكمة فاشتغل بها سهل وكثرت مادته من العلم وجعل معه عالماً اسمه سلم كما جعل شريكاً له سعيد بن هارون ولعله اخوه او ابن عمه .

ولا شك ان سهلاً تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها بما لم يتهيأ لغيره الوصول اليه . خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة اي انصراف الى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات من اللغات الرومية والسريانية والفارسية والهندية . لا يهنأ له بال حتى تمسي المكتبة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا على ما هي تامة في علوم الدين ، وقد كان شرع بالنقل عن اللغات الاخرى الأمويان العظيمان خالد بن يزيد وعمر بن عبدالعزيز في دمشق خلال القرن الاول . وثنى بذلك في بغداد الخليفتان العباسيان المنصور والمأمون في القرن الثاني .

انسع الأفق أمام عقل سهل واستكملت أمامه عامة أدوات النبوغ ولم تقف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

به الهمة عند الاخذ من كتب الفرس والفارسية لغته الاصلية بل تعدتها الى الاخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف البشرية خصوصاً وانتقاله الى بغداد بعد البصرة جاء متمماً له بغيته وكان اختلاطه برجال الخلافة وكانوا من كل صنف ونحلة وجنس معواناً له على الكمال وظهور جوهر نفسه . وقد يستفيد المرء بالمشرة والتلقي ما يستفيد من النظر في الكتب وتصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل .

وذكر الصفدي ان سهل بن هرون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له . اي انه كان له منصبان الاشراف على خزانة المأمون اي خزانة كتبه الخاصة والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة او بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد . وفي ذلك ما يشعر بان المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره ولا يشبعه منه انصرافه الى المصالح العامة فقط او انه لم ير الكفاءة المطلوبة في غيره ليتولى هذين العملين .

« نثره وشعره » : — ان النزر القليل الذي وصل الينا من كلام سهل بن هرون يهيء لنا السبيل الى الحكم عليه في بلاغته ورجاحته وعلمه وكلام المرء عنوانه ومرآته به نعلم ميوله ومنازعه ونستخرج دفائن نفسه . ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الابطاء في أداء الفريضة ، شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار ، وليس في نفع تحمد به عوضاً عن فساد المروءة ، ولزوم النقيصة . » وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع اذا ما منعه كان أحزما
مذل نفس قد أبت غير ان ترى مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب الى صديق له أبلّ من ضعف : « بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها والشكاة في حلولها وارتحالها فكاد يشغل القلق باوله عن السكون لآخره وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للاولى وارتياحاً للأخرى » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن كلامه يعزّي : التهنئة بآجل الثواب ، اولى من التعزية على عاجل المصيبة .
وقال في المعنى : مصيبة في غيرك لك ثوابها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها .
وقال : حق كل ذي مقالة ان يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلأن يُذم الزمان لكم ، خير من ان يذم بكم . ومن كلامه : العفو الذي يقوم مقام العتق ماسلم من تعداد السقطات ، وخلص من تذكار الزلات . وكتب الى جعفر بن يحيى :

اذا ما اتى يوم يفرق بيننا بموت فكن انت الذي يتأخر

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحتسب له ، اي لا يعتدّ به ، وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

وقال محمد بن زياد الزيادي البصري : وجدت على سهل بن هرون في بعض الامر فهجوته فكتب اليّ : « اما بعد فالسلام على عهدك ، وداعٌ ذي ظن بك ، في غير متهمة لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى في امرك ، واقرار بالعجزة عن استعطافك ، الى اوان بهأتك ، او يجعل الله لنا دولة من رحمتك والسلام » . وكتب في أسفل الكتاب :

ان كنت أخطأت واسأت ففي عفوك مأوى للفضل والمنن
أثبت ما استحق من خطإ فجد بما تستحق من حسن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق . يُهجى وهو يسترضي هاجيه .

ومن محاسن تعريضات سهل انه خاطب بعض الامراء فقال له : كذبت فقال : أيها الامير ان وجه الكذاب لا يقابلك يعني الامير بذلك لان وجه الانسان لا يقابله . ورويت هذه النكتة لغيره . وحكى الجاحظ ان ابا الهذيل العلاف المتكلم سأله رقعة يكتب بها الى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته فكتب رقعة وختمها ودفعها اليه فأوصلها الى الحسن فلما رآها ضحك وأوقف عليها ابا الهذيل واذا فيها مكتوب :

ان الضمير اذا سألتك حاجة لابي الهذيل خلافُ ما أبدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فامنحه روح اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفاً ليحسن ظنه في غير منفعة ولا رفد
حتى اذا طالت شقاوة جده وغنائه فاجبهه بالرد
وان استطعت له المضرة فاجتهد فيما يضر بابلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها : « هذه لك الويل صفتك لا صفتي » وامر لابي الهذيل بالف دينار فعاد اليه فعاتبه فقال سهل : ترى اين عزب عنك الفهم اما سمعت قولي ان الضمير خلاف ما أبدي فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا . قال الجاحظ : هذه من مغالطات سهل وبلاغته .

وروى الثعالبي قال : « حاجة ابي الهذيل » يضرب مثلاً للحاجة يسألها الانسان لغيره ويضمر ضد ما يظهر ولا يحب قضاءها إما بخلاً بجاهه واما لحاجة أخرى في نفسه . قال وكان ابو الهذيل سار الى سهل بن هرون الكاتب وكان خاصاً بالحسن ابن سهل يسأله الكلام في امره ويستعينه على ضائقة دفع اليها فسار سهل الى الحسن فكلمه وقال له : قد عرفت أيها الامير حال ابي الهذيل ومحله وقدره في الاسلام ولنه متكلم قومه والرادّ على أهل الالحاد وقد فزع اليك لإضافة هو فيها فوعده ان ينظر له ما يصلح حاله . وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ بعد ان كلم الحسن بن سهل بشأن ابي الهذيل شيئاً من الفتور فلما أريد على الشفاعة بابي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الابيات ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة .

وابو الهذيل هذا هو شيخ المأمون وكان يقول فيه « أطلّ ابو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الانام » وكان يأخذ من السلطان في كل سنة ستين الف درهم ويفرقها على أصحابه .

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلا :

من كان يعمر ما شادت أوائله فانت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق ان تأبى فعالهم وانت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل :

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من ان يراني غنياً عنه بالياس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا يراني اذا لم يرع آصرتي مستمر يا درراً منه بابساس
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ما كان مطلبه فقراً الى الناس

ومن شعره :

أعان طرفي على جسمي واعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غراً بما تجني عليّ يدي لا علم لي ان بعضي بعض اعدائي

هذا هو الشعر الذي يسميه الافرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) واكثر شعر العرب منه وهو مرآة شعور صاحبه وما يمليه عليه قلبه ويزينه له طبعه .

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير اذا رعف اغلق امراره وابان آثاره . وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد واعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم .

وقال : لا يُقدم على الخطبة الا اثنان فائق او مائق اما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع واما المائق فانه لا يبالي اخطأ ام اصاب .

وقال : لو ان رجلين خطبا او تحدثا او احتجا او وصفا وكان احدهما جليلاً بهياً ولبيباً نبيلاً وذا حسب شريفاً وكان الآخر قليلاً قميئاً (صغيراً ذليلاً) وباذ الهيأة (رثها) دمياً وخامل الذكر مجهولاً . ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الذميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ولكان غلبهم التعجب منه على مساواة صاحبه له ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ولكان الاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه لان النفوس كانت له احقر ومن بيانه ايأس ومن حده ابعد فاذا هجموا منه على عالم يكونوا يحتسبونه وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم لان الشيء من غير معدنه اغرب وكلما كان اغرب كان ابعد في الوهم وكلما كان ابعد في الوهم كان اظرف وكلما كان اظرف كان اعجب وكلما كان اعجب كان ابدع وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين فان ضحك السامعين من ذلك اشد وتعجبهم منه اكثر .

والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد وليس لهم في الموجود الراهن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في علمهم والاصحاب في الفائدة من صاحبهم وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم و يرحلون الى النازح عنهم ويتركون من هو أعظم نفعاً واكثر في وجوه العلم تصرفاً وأخف مؤنة واكثر فائدة ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق والطارف على التليد .

الى ان قال : فاذا كان الحب يعمي عن المساوي فالبغض ايضاً يعمي عن المحاسن وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الامور . الا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم وإلا قوي المنة الوثيق العقدة والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الاكثر .

وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال . قال المأمون : قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم فان كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا ولو قلت : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ولا تبلغ غايته ولا تستقصى أصنافه ولا يضبط آخره فالامر على ما قلت فاذا كان الامر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم وابدأوا بالفرض قبل النفل فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً .

و يقال على الجملة ان من الندرة ان يتم لانسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة ثقفته المحيط العربي في ارقى بيئة عهدت في التاريخ الاسلامي وجاء في عصر زاهر بجملته وتفصيله ودخل في أمة قوية فنية فرفعه علمه وفضله الى اعلى مقامات الفضل والنبل وهيئا له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الادب العربي وساعده على ذلك طول اجله . اذ لو فرضنا انه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين وقد قبض سهل الى ربه في سنة اربع وثلاثين ومائتين . والرشيد تولى الخلافة سنة احدى وسبعين ومائة . واذا فرضنا انه اتصل بالرشيد في منتصف عهده فلا يكون سهل عُمّر أقل من تسعين سنة او ما يقرب من عمر صاحبه الجاحظ خمس وتسعون . ومن بورك له بايام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجئ من المعتبط كهلاً او شاباً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« أثره الباقي » : — ومن امثل ما أثر لسهل بن هرون من الكتب بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفاً عن سلف كتابه الى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب قال في فاتحته يحاجّهم : « بسم الله الرحمن الرحيم : أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجملكم من اهله . قال الاحنف بن قيس : يامعشر بني تميم لا تسرعوا الى الفتنة فان اسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار وقد كانوا يقولون : اذا اردت ان ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً فانه انما يعيب بفضل مافيه من عيب . واول العيب ان تعيب ما ليس بعيب وقبيح ان تنهى مرشداً او تغري بمشفق .

وما اردنا بما قلنا الا هدايتكم وتقويمكم وصلاح فاسدكم وابقاء النعمة عليكم . ولئن اخطأنا سبيل ارشادكم فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون انا ما اوصينا كم الا بما قد اخترناه لانفسنا قبلكم وشهرنا به في الآفاق دونكم . ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما أريد ان أخالفكم الى ماانهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) . فما كان احقكم في كريم حرمتنا بكم ان ترعوا حق قصدنا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب برّاً وفضلاً لرأينا في انفسنا عن ذلك شغلاً وان من اعظم الشقوة وابعد من السعادة الا يزال يُتذكر زلل المعلمين و يُتنامى سوء استماع المتعلمين و يستعظم غلط العاذلين ولا يحفل بتعمد المعذولين » .

فبدأ كما ترون في تقريع اهله او الناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم في ايثار كرازة اليدين على بسطها وانه اراد بارادتهم على الخير تعليمهم وحفظ فضل اموالهم وانهم اخطأوا في سوء فهم مراميه ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً . وذكرهم بحكمة جميلة وهو ان الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ولا يذكرون جهل المتعلمين وعبر عنه بسوء الاستماع وهو من ارق التعابير . وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح . وبعد ان بلغ من قوله هذا الحدّ و بسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله ودعوة الناس الى طريقته وابان انه اشتهر بها في العالم وانها مما لا يعده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لمة في الشرف بل فضيلة من فضائل النفس . بعد هذا اخذ يخاطبهم و يورد لهم الامثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة فقال :

« عبتموني بقولي لخادمي : اجيدي عجنه خميراً كما اجدته فطيراً ليكون اطيب لطعمه واز يد في ريعه وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لاهله : أملكوا العجين (شدوا عجنه) فانه احد الربعين . وعبتم عليّ قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي . فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدلُّ حجمها على مبلغ الكفاية وأشف من الكفاية فلما صرت الى تفريق اجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وظيفة الماء وجدت في الاعضاء فضلاً على الماء فعلمت ان لو كنت مكنت الاقتصاد في اوائله ورغبت عن التهاون به في ابتدائه لخرج اوله على كفاية آخره ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه وقد قال الحسن : وذكر السرف : انه ليكون في الماعونين الماء والكلاء فلم يرض بذلك الماء حتى اردفه بالكلاء » .

وبذلك رأينا انه بسط قاعدته في البخل بسطاً بديعاً وبدأها بما وقع له في الماء ثم ثنى في الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولاً إقناع مخاطبيه بان الناس طبقات وليس من الانصاف ان يأكل السيد كالمولى فان إطعام الموالي والعبيد اطعمة اوثمار لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها اذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم واشار الى نهم الاولاد وسوء ادارة النساء الى ان قال :

« وعبتموني حين ختمت على سلٍّ عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رُطبة غريبة على عبد نَوِم وصبي جَشِم وأمة لكعاء وزوجة خرقاء وليس من اصل الادب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة — ان يستوي في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل — التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع اسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات . وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ولا يكترثون له اكتراث العارف ومن شاء اطعم كلبه الدجاج المسمن وعلف حماره السمسم المقشر . فعبتموني بالخبز وقد ختم بعض الائمة على مزود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سويق وختم على كيس فارغ . وقال : طينة خير من ظنة فأمسكتم عمن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء » .

ثم تحول في كلامه الى ذكر امور جوهرية في الحياة ، ذات شأن خطير في تدبير المنزل ، كالطعام واللباس مستشهداً على صحة قضيته بهدي الرسول ، وايراد أمثلة ممن يقتدى بهم في هذا الباب من الناس . فقال :

« وعبتموني حين قلت للغلام ، اذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (اذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحماً اصاب مرقاً) .

وعبتموني بخصف النعل (خرزها) ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت ان المخصوفة ابقى واوطأ واوقى وانقى للكبر واشبه بالنسك وان الترقيع من الحزم والتفريق من التضييع والاجتماع مع الحفظ . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه ويلطع اصبعه ويقول : لو دُعيت الى كراع لأجبت ولو أُهدي اليّ كراع او ذراع لقبلت . ولقد لَقَّمت سعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش وهو طلحة الفياض . وكان في ثوب عمر رقاع أدم . وقال : من لم يستح من الخلال خفت مؤنته وقل كبره . وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخلق .

« وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدثا واشترط على الرائد ان يكون عاقلاً مسدداً . فأتاه به موافقاً فقال : أكنت ذا معرفة به قال : لا ولا رأيته قبل ساعته . قال : افناقلته الكلام وفاتحته الامور قبل ان توصله اليّ قال : لا قال : فلم اخترته على جميع من رأيته قال : يومنا يوم قائظ ولم ازل اتعرّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ورأيت ثياب النامس جُدُدا وثيابه أُبُسا فظننت به الحزم . وقد علمنا ان الجدد في موضعه دون الخَلَق . وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدرا وبوّأ له موضعا كما جعل لكل دهر رجالا ولكل مقام مقالا وقداحي بالسمن وامات بالغذاء واغص بالماء وقتل بالدواء . فترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح التواضع وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكبر . وقد زعموا ان الاصلاح احد الكسبين كما زعموا ان قلة العيال احد اليسارين . وقد جبر الأحنف يد عنز وامر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بذلك النعمان وقال عمر : من اكل بيضة فقد اكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أُهدي اليك دجاجة وقال : ان كان لابد فاجعلها بياضة . وعد ابوالدرداء العراق (بقايا الحمض) جزر البهيمة » .

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد اراد بها تعليم المنتقصين له درساً نافعاً في الترتيب والنظام والقى عليهم مثلاً حسناً لا يسع حتى المسرف ان ينقضه وقد شفع كلامه بامثلة ليس في مقدور احد انكارها ولا تبلغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف ان يقول ان من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة . وبعد ذلك التفت التفاتة أُخرى . وبين لخصومه فضيلة الامساك في المال والحرص عليه لما يجلب الاستهتار من العوز فقال :

« وعبتموني حين قلت : لا يغترن احد بطول عمره ونقوّس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته ان يُري أكرومته ولا يُخرجه ذلك الى اخراج ماله من يديه وتحويله الى ملك غيره والى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله ان يكون معمّراً وهو لا يدري وممدوداً له في السن وهو لا يشعر ولعله ان يرزق الولد على اليأس ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه اضعفَ ما كان من الطلب واقبحَ ما يكون به الكسب . فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص : إعمل لدنياك عمل من يعيش ابداً واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .

« وعبتموني حين زعمت ان التبذير الى مالي القمار ومال الميراث والى مال الالتقاط وحباء الملوك اسرع وان الحفظ الى المال المكتسب والغنى المحتلب والى ما يُعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ونصب البدن واهتمام القلب اسرع وان من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دَخله ومن لم يحسب الدخل فقد اضاع الاصل وان من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل . وعبتموني بان زعمت ان كسب الحلال مُضَمّنٌ بالانفاق في الحلال وان الخبيث ينزع الى الخبيث وان الطيب يدعو الى الطيب وان الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق وان الانفاق في الحقوق حجاز دون الهوى فعبتم عليّ هذا القول وقد قال معاوية : لم ارَ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تبذيراً قط الا والى جانبه حق مضيَّع . وقد قال الحسن : اذا اردتم ان تعرفوا من اين اصاب الرجل ماله فانظروا في اي شيء ينفقه فان الخبيث انما ينفق في السرف .

« وقلت لكم بالشفقة عليكم وبحسن النظر مني لكم وبحفظكم لآبائكم ولما يجب في جواركم وفي مخالطتكم وملابستكم وانتم في دار الآفات والحوائج غير مأمونات ، فان احاطت بمال احدكم جائحة لم يرجع الى بقية فاحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة ، فان البلية لا تجري في الجميع الا مع موت الجميع . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة وفي ملك الشاة والبعير وفي الشيء الحقير اليسير : فرقوا بين المنايا . واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون باموالكم قال : نفرقها في السفن فان عَطِب بعض سلم بعض ولولا ان السلامة اكثر لما حملنا اموالنا في البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهي صَنَاعٌ (حاذقة) . »

وبعد هذا الكلام الممتع مثَّل سهل صورة جديدة في الاخلاق العارضة على من استغنى وحذر من الوقوع فيها لئلا تؤدي الى الفقر وهو ابشع ضروب المظاهر وبين العلة في قوله ان المال مقدم على العلم لان بالمال يكتسب العلم ويعرف قدر العلم فقال :

« وقلت لكم عند إشفاقي عليكم ان للغنى سكراً وان للمال لنزوة فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله فعيبتموني بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة ليس احد أقصر عقلاً من غنيّ أَمِنَ الفقر وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم قد لزم الحث على الحقوق والتزهيد في الفضول حتى صار يستعمل ذلك في اشعاره بعد رسائله وفي خطبه بعد سائر كلامه فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد :

عدو تِلاد المال فيما ينوبه ... منوع اذا ما منعه كان احزما

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد :

وخليقتان بُقى وفضل تحرم ... وإهانة في حقه للمال

« وعيبتموني حين زعمت اني أقدم المال على العلم لان المال به يغاث العالم وبه تقوم النفوس قبل ان تعرف فضيلة العلم وان الاصل أحق بالتفضيل من الفرع واني قلت وان كنا نستبين الامور بالنفوس فانا بالكفاية نستبين وبالخلة نعمي وقلتم كيف نقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الادباء العلماء أفضل ام الاغنياء ؟ قال بل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلماء قيل فمابال العلماء يأتون ابواب الاغنياء اكثر مما يأتي الاغنياء ابواب العلماء قال لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الاغنياء بفضل العلم . فقلت حالها هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض .

« وعيبتوني حين قلت ان فضل الغنى على القوت انما هو كفضل الآلة تكون في الدار ان احتيج اليها استعملت وان استغني عنها كانت عدة . وقد قال الحصين بن المنذر وددت ان لي مثل أحد ذهباً لا انتفع منه بشيء قبل فما ينفعك من ذلك قال لكثرة من يخدمني عليه . وقال ايضاً عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه الا انه عزّ في قلبك وشبهة في قلب غيرك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع به عظيماً .

وختم كتابه في انه لن يبدل من خلقه في الشح وفي الدعوة الى تزيينه للناس وأورد جملاً لجماعة من المشهورين بالعقل وذكر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل ان يذكروا ما لهم وذلك بقوله :

« ولسنا ندع سيرة الانبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لاصحاب الاهواء . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الاغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال درهمك لمعاشك ودينك لمعادك فقسموا الامور كلها على الدين والدنيا ثم اجعلوا احد قسمي الجميع الدرهم . وقال ابوبكر الصديق رحمه الله اني لأبغض اهل البيت ينفقون رزق الايام في اليوم الواحد . وكانوا يبغضون اهل البيت اللاحمين (Les carnivores) (الذين يكثرون اكل اللحم) . وكان هشام يقول ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً . ونهى ابو الاسود الدؤلي وكان حكيماً اديباً وداهياً اريباً عن جود كم هذا المولد وعن كرمكم هذا المستحدث فقال لابنه اذا بسط الله لك في الرزق فابسط واذا قبض فاقبض ولا تجاود الله فان الله أجود منك . وقال درهم من حلّ يخرج في حق خير من عشرة آلاف قبضاً . وتلقّط عرزالا [1] من بريم فقال تضيعون مثل هذا وهو قوت امريء مسلم

(١) لعل العبارة محرفة ولعلها « عرماً من ثرتم » العَرْمُ بقية القدر والثرتم كقنفذ ما فضل من الطعام والإدام في الاناء والقصعة اوما نسميه باللغة الشامية القحاطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يوماً الى الليل . وتلقط ابوالدرداء حبات حنطة فنهاه بعض المسرفين فقال (إيه ابن العبسية ان مرفقة المرء رفقه في معيشته) .

فلستم عليّ تردون ولا رأيي تفندون . فقدموا النظر قبل العزم وتذكروا ماعليكم قبل ان تذكروا مالكم والسلام اه » .

« خاتمة » = وبعد فهذه صفات سهل بن هرون وهذا انشاؤه ونثره بل هذا فكره وعقله وما أوردنا الا مثالاً ضئيلاً مما كتب ووصل الينا وقد اتى عليه بعد احد عشر قرناً فتعرفنا على الجملة طريقته وحقيقته وكان علينا ان ننسج على غراره في بيانه ونعلم كيف يبالغ في انتقاء ألفاظه حتى لا يتخير منها الوحشي النافر ولا المكرر الساقط يتنوق كرائمها و يسلكها في سلكه و يرصعها في عقوده و يلبسها حلة من حلل قلبه فتجيء جزالة من دون تعمد وسلاسة من غير ما تبذل ونمطاً عالياً من السهل الممتنع يتدفق حكمة و يسيل بياناً تتناوله الأذهان وتتشربه الانفس عفواً صفواً فاذا أراد المقلد ان يحذو حذوه فهناك تفاضل العقول والقرائح . سهل بن هرون احد افراد قلائل زانوا بما صاغوا من الكلم الطيب تاريخ أدب العرب واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي وكلامه في بابه لباب البلاغة ومثال الفصاحة لا تبلى جدته على وجه الايام ولا يحتاج في الحكم عليه الى محكمة نقض وإبرام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net